كمبوديا

رحلة إلى روائع المجهول

> نوم بنه –
منير الفيشاوي

حين هممت بالتحضير للسفر إلى كمبوديا، طفت علامات إستفهام كثيرة على سطح مخيلتي لهذا الكائن السياسي القابع بمنطقة الهند الصينية، لم أكن أعرف أو أسمع عنه من قبل سوى كونه كان لفترة من الزمان مسرحاً لأقصى وأقسى ما يمكن أن توصف به حكايات وروايات السجن والتعذيب والقتل والتنكيل على يد" الخمير الحمر" حتى انقشعت تلك الغمامة السوداء فجر أحد أيام عام 1979 على يد الشعب الكمبودي مدعوماً بالقوات الفيتنامية.

نافورة بأحد ميادين بنوم بنه
A fountain- Pnom Penh

ذن هي فرصة وقد لاحت للبحث عما هو جديد وجميل وممتع في هذا العالم المجهول الخاص الذي يدعى" كمبوديا". سافرت إلى هناك وتعاملت مع شعب كمبوديا الطيب الودود، وشاهدت بعض معالم بنوم بنه بحلوها ممثلة في معالم تلك المدينة الجميلة وقصورها ومعابدها ومساجد المسلمين بها وكورنيش نهر الميكونغ، وبمرها.. ممثلة في معقل الخمير الحمر وصور الضحايا، كما زرت مدينة سييم ريب السياحية وشاهدت روعة التاريخ بها في معبد" أنكور" الهندوسي المعتمد ضمن الإرث الثقافي العالمي لدى اليونسكو، ومعبدي" بايون" و" تابروم" الهندوسيين البوذيين، وقضيت بعض الأوقات بمركز مدينة سييم ريب السياحي.

العاصمة الكمبودية

بعد رحلة استغرقت زهاء خمس عشرة ساعة طيران متقطعة ومثلها ترانزيت بمطاري دبي وهونغ كونغ، حطت الطائرة بسلام على أرض مطار العاصمة الكمبودية بنوم بنه، وما أن دلفت إلى داخل مبنى المطار البسيط حتى وجدت نفسي أتيه في عالم من الابتسامات العذبة المرتسمة على شفاه الكمبوديين، وتبدأ الإجراءات بمنح التأشيرة مقابل عشرين دولاراً، والسبب في منحها بالمطار أن منطقة الشرق الأوسط وأفريقيا بالكامل ليس بها

بوابة القصر الملكي في بنوم بنه
The gate of the Royal Palace- Pnom Penh

معبد أنكور وات

Angkor Wat Temple

سفارة واحدة لمملكة كمبوديا والعكس بالمثل. وفي دقائق معدودة وجدتني أدفع عربة حقائبي إلى خارج مبنى المطار، لتقلني سيارة تابعة لوزارة السياحة الكمبودية. وأخبرني سائقها، خلال الطريق الذي يستغرق حوالي 15 دقيقة، أن التاكسي في عموم كمبوديا مقنن بعداد يحسب الأجرة حسب المسافة، وأن أجرة التاكسي من المطار إلى أي منطقة بالعاصمة محددة بسبعة دولارات.

ونظراً لشغفي الشديد لبداية اكتشاف المجهول وفك طلاسمه، تركت حقائبي بالفندق وتوجهت إلى شارع "سيسوات كواي" المطل على نهر الميكونغ والذي يعد من أهم مناطق تجمع السياح بالعاصمة الكمبودية خصوصاً في المساء. استقليت عربة "التكتك" والتي تجرها دراجة بخارية، وهي أسرع من مثيلتها التي تجرها دراجة هوائية والمستعملة هنا أيضاً، والأجرة المتعارف عليها تتراوح ما بين الدولار الواحد والدولارين، حسب المسافة. وما أن وصلت إلى مقصدي حتى مشيت في هذا الشارع الساهر إلى ما بعد منتصف الليل والزاخر بالمطاعم والمقاهي ومحلات بيع العاديات والفنادق ومقاهي الإنترنت، والتي يتخللها جميعاً بشكل لافت للنظر مراكز التدليك (المساج) بأنواعه، وصلت إلى قناعة تامة بوجوب نصح السائحين بأن يحضروا على أطراف ألسنتهم كلمتي" لا.. شكراً" اللتين سيضطرون إلى ترديدهما طيلة فترة تنزههم رداً على عشرات بل مئات العروض الملحة من جانب أصحاب عربات التكتك والدراجات البخارية كي يستأجرون خدماتهم، والذين حين ييأسوا من النتيجة يبدأوا في الترويج لمراكز التدليك.

كورنيش نهر الميكونغ في المساء

The Promenade of Mekong River at night

الماضي الحزين

أول مقصد سياحي زرته بالعاصمة الكمبودية هو مبنى" تيول سلنغ" وهو بالأساس مبنى لمدرسة ثانوية حولها" الخمير الحمر" في عهد بول بوت إلى سجن، حيث كانوا يحتجزون به كل صاحب رأي أو علم من كافة أطياف الشعب، ولم يتبق منهم سوى مئات الصور لشخوص بعض هؤلاء الضحايا وقبور للبعض منهم وكذلك آثار دمائهم على جدران غرف التعذيب، علاوة على عشرات من جماجمهم وعظامهم معروضة في فتارين زجاجية بهذا المبنى والذي تحول الآن إلى مزار يدعى "متحف الإبادة الجماعية" أما الناجون فمعظمهم يحملون عاهات جسدية جراء التعذيب الوحشي ومن الممكن الالتقاء بالبعض منهم بالمدن الكبرى في كمبوديا يعزفون الموسيقى بالشوارع مقابل ما يجود به المتجولون.

معالم حضارية

وخروجاً عن الواقع التاريخي الحزين سالف الذكر، تعج مدينة بنوم بنه بالعديد من المعالم الحضارية والسياحية، حيث يعد القصر الملكي من أهم مزارات العاصمة الكمبودية، وهو القصر الذي كان يسكنه الملك السابق المتنحي نوردوم سيهانوك. والقصر مفتوح للزيارة، وهو رائع البنية والطراز، يشابهه مبنى البرلمان الكمبودي وبعض الفنادق الكبرى الفخمة بالمدينة.

ويقضي السياح أوقاتهم في زيارة المعالم آنفة الذكر ثم يتجولون إما على ظهر إحدى المراكب البخارية بنهر الميكونغ مقابل (عشرة دولارات للساعة) أو بواسطة التكتك بنوعيه أو الدراجات البخارية، وعادة ما يركز السياح على التجوال سيراً على الأقدام سواء بشارع سيسوات كواي المطل على النهر، أو بالأسواق الشعبية كسوق "كاندال" والذي يباع به كل شيء من المواد الغذائية إلى الملابس والهدايا وكافة البضائع. ويقوم السياح أيضاً بشراء وتذوق الفواكه الآسيوية الطازجة، خصوصاً تلك غير الموجودة في بلادهم مثل: الأناناس والرامبوتان والدوريان والليتشي والمانجو والدراغون وغيرها، علاوة على ارتياد المطاعم لتناول اختياراتهم من بين عشرات أنواع الشوربة التي تشتهر بها منطقة الهند الصينية، وتذوق لحوم الكانغارو والتمساح واللذين أتحرق شوقاً لتذوقهما وإن لم تسنح الفرصة بعد.. ولكني علمت من البعض أن لحم الكانغارو يشبه في مذاقه لحم الأرانب، أما التمساح فهو قريب المذاق من لحم الأسماك. ولا أخفيكم أن رغبتي الملحة في أكل لحم التمساح هي رغبة انتقامية، لأنه" طول عمره يأكلنا" وآن الأوان كي نأكله نحن؟!

سييم ريب وعجائب الدنيا

غادرت إلى سييم ريب بواسطة السيارة والتي تقطع المسافة من بنوم بنه إلى هناك، والبالغة 314 كم، في حوالي 4-5 ساعات. وعلمت أن تكلفة السفر بالباص لنفس الرحلة هي عشرة دولارات.

وفي الاستراحة الرئيسية بمقاطعة كامبونغ توم شاهدت بائعات يحملن صواني مليئة بالعناكب والجراد والفراشات المقلية، وكان الكمبوديون يقبلون على شرائها وأكلها بنهم شديد.

وعلى الرغم من وصولي إلى سييم ريب بالطريق البري، إلا أن هناك العديد من الخيارات الأخرى من وسائل المواصلات إليها، من بينها الطيران المباشر من العاصمة الكمبودية (40 دقيقة) أو من عواصم دول أخرى مثل تايلاند وسنغافورة وماليزيا وميانمار وكذلك "سايغون" العاصمة الثانية لفيتنام، بمعدل حوالى عشر رحلات يومياً قابلة للزيادة في المستقبل القريب. كما يمكن الوصول إلى سييم ريب بواسطة القوارب عن طريق نهر وبحيرة تونل ساب، والتي تبحر من بنوم بنه وإقليم باتامبانغ.

وتعد سييم ريب بالنسبة للسياح المهتمين بالثقافة والتاريخ المقصد الرئيسي من زيارتهم إلى كمبوديا، حيث تزخر هذه المدينة الساحرة بعدد كبير من المعابد البوذية والهندوسية غاية في الروعة والجمال أهمها معبدي أنكور وات وبايون.. وحيث يعتبر الكمبوديون معبد أنكور وات من" عجائب الدنيا السبع"؟! حسبما ذكروا في نشراتهم السياحية.

ويعد" أنكور وات" أكبر معابد العالم قاطبةً، حيث يفترش معظم المساحة المقام عليها والبالغة 200 هكتار في مشهد تاريخي مهيب لمعبد ضخم يتخلل بناؤه الصخري مساحة شاسعة من الأرض الخضراء، شيده الملك سوريافامان في بدايات القرن الثاني عشر

طفل كمبودي يلهو في بركة مجاورة لمسجد دبي
A child playing in a pond near Dubai Mosque

أحد روافد نهر الميكونغ
A tributary of the Mekong River

مبنى البرلمان الكمبودي في ينوم بنه The Parliament Building- Pnom Penh

الكاتب مع فرقة فلكلورية كمبودية The writer with a Cambodian folk group

الميلادي واستغرق بناؤه زهاء ثلاثين عاماً.

ويتكون المعبد من عدد من الساحات المتتالية يربط بين كل منها ممشى طويل يفصله عن المساحات الخضراء المتجاورة سوران منخفضان إلى اليمين واليسار مجملان بأشكال متعددة من التماثيل، كما تحكي كل منحوته جدارية منها رواية أو قصة مختلفة عن منحوتات المبنى الذي يليه أو يسبقه من خلال صور بارزة رائعة وواضحة. فالجدار الأول يشرح كيف تكونت إمبراطورية أنكور، كما يروي كيف كان يقوم الملك وقادة جيوشه بالتخطيط والقتال في ميادين المعارك. أما الجدار الثاني فيجسد الديانة الهندوسية. ويشرح الجدار الثالث كيف قام الفيشنو بحماية المملكة وشعبها، ثم يأتي الجدار الرابع والأخير ليصف كيف كان الشعب يبجل ويمتدح ويمجد ملكه المفدى.

معبد بايون

يقع معبد بايون البوذي بمدينة المعابد" أنكور توم"، حيث شيده الملك جايفارمان السابع في القرن الثاني عشر الميلادي أيضاً. ويتكون المعبد من 54 برجاً منحوت على كل ضلع من الأضلاع الأربعة قرب قمة كل منها صورة وجه بارزة.

وتعد مدينة "أنكور توم" مجمعاً للمعابد، حيث تضم أيضاً معابد تابروم وبافيون وبيميناكاس وغيرها الكثير، ويميز معبد بايون والمعابد الأخرى النقوش المنحوتة على الجدران بأسلوب فني مدهش ومذهل يشعرك بروزها الواضح ودقة معالمها بأنك تسمع قصة أو أسطورة تاريخية ترددها جدران المعابد بصوت مرتفع، رغم الهدوء الذي يلف المنطقة.

أما الحدائق المحيطة بالمعابد في" أنكور توم" فتتنوع مشاهدها ما بين أراض منبسطة تتحرك فيها الأفيال التي يمتطيها السياح في نزهة بالمكان، وأشجار باسقة وضخمة بحدائق غير منتظمة السطوح.. وترى من المواقع المنخفضة جذورها العملاقة الملتوية والمتعانقة التي ترسم لوحات تشكيلية طبيعية ليس هناك أروع منها، يقرأها كل محدق فيها بشكل مختلف عن الآخر. كما تتناثر بعض الفرق الفنية بأزيائها التراثية في جنبات المعابد ذاتها وبين أبراجها، وهي تقدم فنونها الفلكلورية ويلتقط السياح الصور التذكارية مع أفرادها.

من ناحية أخرى تشهد فترة المساء بمركز مدينة" سييم ريب" نشاطاً ملحوظاً يمتد لما بعد منتصف الليل، حيث يرتاد الساهرون مطاعمها ومقاهيها المتراصة جنباً إلى جنب بالعديد من الشوارع المتجاورة والمتقاطعة، علاوة على ما تقدمه الفنادق الفخمة المتعددة بالمدينة من سهرات وأنشطة فنية فلكلورية وعالمية ترضي جميع الأذواق.

مسلمو كمبوديا

بانتهاء زيارتي لمدينة" سييم ريب" كان علي مغادرتها والعودة إلى العاصمة" بنوم بنه". وركزت هذه المرة زيارتي القصيرة للعاصمة على زيارة أكبر مساجد كمبوديا ويدعى مسجد" دبي- بنوم بنه"، والذي تبرع بتشييده بعض أثرياء دبي من الخيرين في عام 1969. وبسؤالي عن شيخ وإمام المسجد أخبرني نجله الشاب اليافع محمد يونس أن والده مشغول الآن بمباركة حفل خطوبة بمنزل إحدى الأسر المسلمة، وأجرى اتصالاً هاتفياً معه... فأشار له والده بإحضاري إلى هناك. وفي غضون دقائق وجدت نفسي هناك أخلع حذائي لأدلف إلى داخل المنزل حيث رحب بي الجميع رجالا ونساء من كافة الأعمار، كانوا يفترشون أرضية المنزل في حلقات دائرية واسعة تحيط بعشرات الصواني والأواني الممتلئة بالأرز واللحم والدجاج، وكذلك الفواكه والحلويات، ودعوني لتناول الطعام معهم، وكانت المرة الأولى التي أتناول فيها طعاماً وأنا مطمئن، خصوصاً اللحم الحلال، والذي حرمت منه معظم فترة تواجدي في كمبوديا.

قضيت حوالي الساعة وسط هذا التجمع الإسلامي البهيج أتحاور معهم ومع العريس والعروس واللذين كانا خجلين للغاية.

توجهت بعدها إلى المسجد بصحبة الإمام الشيخ محمد حسن وولده وهناك أخذ يحكي لي، بالعربية التي يتقنها بطلاقة، ذكرياته في مصر حيث كان يدرس هناك بجامعة الأزهر التي تخرج منها عام 1969. وأعلمني الإمام أن العاصمة بنوم بنه تضم حوالي مائة أسرة مسلمة، وأن عدد المسلمين في عموم كمبوديا

يصل إلى حوالي نصف مليون مسلم، وأن عدد المساجد بها هو 330 مسجداً بخلاف الزوايا الصغيرة. كما أعلمني بأنه لا توجد مشاكل تواجه المسلمين في كمبوديا نظراً لحرية العقيدة التي يتمتع بها المواطنون في عموم البلاد، وإن كانت الموارد أو التبرعات التي تأتي إلى المساجد ضئيلة للغاية ولا تفي حتى بإجراء الصيانة من وقت لآخر.

وبعد انتهاء زيارتي للمسجد اصطحبني نجل الشيخ إلى قرية صغيرة تدعى قرية ميكونغ أو سالقرية الطافية" وهي تتكون من بضع عشرات من البيوت الخشبية والقوارب المغطاة، وجميعها، وبضمنها المسجد، مقام على سطح مياه نهر الميكونغ قبالة إحدى ضفتيه، يسكنها صيادو سمك معظمهم من المسلمين وهم بمثابة قبيلة أو مجموعة عرقية تدعى" تشام". وهم مواطنون بسطاء. وقد لفت نظري وجود عدد كبير من أطفالهم الصغار، عرايا تماماً، يلعبون ويمرحون ويقضون معظم وقتهم في الماء.

باي باي .. كمبوديا

وباقتراب موعد انتهاء "رحلتي إلى روائع المجهول في كمبوديا" تأكد لي بأن هذا البلد يمتلك مقومات متنوعة كافية لكي تجعل منه أحد أهم المقاصد السياحية العالمية الهامة، فمساحته البالغة 181،035 كم مربع غنية بمقومات السياحة الثقافية والتاريخية والترفيهية، علاوة على التنوع الجغرافي والمناخي والديني. وسوف يجد السائح أكثر من 12 مليون مواطن كمبودي، هم مجموع السكان، في خدمته. كما أنه سيشعر أن هذا الشعب على الرغم من بساطته إلا أنه يتمتع بحس سياحي واع، يشعره بالألفة من خلال روح المرح والطيبة والأمانة التي يتمتع بها. ولا يشعرك أحد بأي فروق أو تطرفات عقائدية دينية رغم كون حوالي 90% منه يعتنقون الديانة البوذية و4% يعتنقون الإسلام و 2% يعتنقون المسيحية علاوة على ما تبقى من نسبة لعقائد أخرى. ولن يشعر السائح أن المواطنين الكمبوديين ينقسمون فيما بينهم إلى 90% من الخمير و10% مؤلفة من مجموعات عرقية متنوعة. فالكل هنا سواء، منصهرين في بوتقة واحدة، هي كمبوديا. وجميعهم يتنفسون السياحة، ويشعرون بأهميتها للنهوض بتنمية البلاد اقتصاديا ورفع مستوى الفرد الكمبودي والقضاء على البطالة والفقر.

من ناحية أخرى فتحدث الشعب الكمبودي لغته القومية" الخمير" لم تثنه عن ممارسة التحدث باللغة الإنكليزية التي تخدم حركة السياحة.. فالغالبية العظمى يتحدثونها، بدرجات متفاوتة. وكبار السن يتحدث معظمهم الفرنسية أيضاً. وانس أيها السائح أن تدرج دور السينما ضمن برنامجك، فعموم الدولة ليس بها سوى دار واحدة للسينما إسمها سينما" لوكس". وعليك حمل مبلغ 25 دولاراً كرسم مغادرة في مطار " بنوم بنه" أو مائة ألف ريل كمبودي، حيث أن الدولار الأمريكي الواحد يساوي أربعة آلاف ريل(العملة الكمبودية). أما المواسم المناخية الممطرة فهي تبدأ من مايو/أيار حتى أكتوبر/تشرين الأول. أما المواسم الجافة فهي بين نوفمبر/تشرين الثاني وأبريل/نيسان. ولن يصادفك جو بارد سوى في ديسمبر/كانون الأول ويناير/كانون الثاني، فمعدل درجة الحرارة على مدار العام هو 27 درجة مئوية وإن كانت الرطوبة محسوسة بشكل ملحوظ.

من ناحية أخرى، فكون كمبوديا مطلة على خليج تايلاند، فالفرصة متاحة لك للاستمتاع بالسياحة الشاطئية في جنوب البلاد، خصوصاً بمنطقة "سيهانوك فيل". واشتراك كمبوديا في حدود برية مع لاوس من جهة الشمال وتايلاند من الغرب وفيتنام من الشرق يتيح لك التنقل في دول الهند الصينية المذكورة بأقل التكاليف. فلك أن تتصور أن سفرك بالباص المكيف من بنوم بنه إلى مدينة سايغون (هوشي منه) الفيتنامية لن يكلفك سوى 11 دولاراً فقط شاملة لوجبة غذائية! وهو ما انتهزت الفرصة وفعلته، وسترد تفاصيله في عدد قادم بإذن الله. ■

مسجد في الطريق ما بين بنوم بنه وسييم ريب
A mosque on the road between Pnom Penh and Siem Reap

قصر الملك المتنحي نوردوم سيهانوك
The Palace of Norodom Sihanouk